الأربعاء: 2023/11/22
التوقيت: 14:50 – 16:20
عن بعد

الدرس رقم 08: الاستشراق والشعر الجاهلي

نقلا عن هدى الدامغ

كان مرجليوث من أكثر المستشرقين حيوية ونشاطًا؛ فقد أحصى له العقيقي ثمانية وستين أثرًا بين كتاب في أجزاء وبحث ومقالة وترجمة وفهرس وتعليق، وباللغات الإنكليزية واليونانية والسريانية والعبرية والفارسية والعربية والألمانية وغيرها، وأهم أعماله فيما يخص التراث العربي والإسلامي: تحقيق رسائل أبي العلاء المعري متنًا وترجمة مع شرح وتذييل وترجمة الأعلام، وكتاب محمد ونهضة الإسلام في 481 صفحة، وتحقيق كتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي في سبعة أجزاء، وكتاب الإسلام، وتحقيق كتاب الأنساب للسمعاني، والعلاقات بين العرب واليهود، والتطورات المبكرة في الإسلام، وكتاب القرآن، وأصول الشعر العربي.

وقال مصطفى صادق الرافعي عن مقالته "أصل الشعر العربي": (ساق لنا الأستاذ بعض أدلته فلم نجد مقنعاً ولا رضا، وقلنا هو رأي في العلم لا عِلم، ثم هو من مستشرق وذلك أوهن له، وما كان لنا أن نأخذ عن القوم في الأدب العربي إلا بتمريض واحتراس).

كان مرجليوث من أوائل من أثار الشك في الشعر الجاهلي في مقالة كاملة، خصص صفحاتها الكثيرة للحديث عن هذا الموضوع من جميع أطرافه، فقد نشر في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية بحثًا عنوانه (أصول الشعر العربي) رجح فيه أن هذا الشعر الذي نقرأه على أنه شعر جاهلي إنما نظم في العصور الإسلامية ثم نحله هؤلاء الواضعون المزيفون لشعراء جاهليين، وقد بنى هذه الدعوى على ضربين من الأدلة: أدلة خارجية، وأدلة داخلية.

ومن هذه الأدلة التي قدمها في كتابه لإنكار وجود الشعر قبل الإسلام: اختلاف مفهوم الشعر في القرآن عنه في الأدب اللاحق، فزعم مرجليوث أن شعراء الجاهلية هم الكهان، وسجعهم هو الشعر الجاهلي، فلا وجود لشعراء في الجاهلية وإنما المقصود بهم كهان الجاهلية. كما أن خلو النقوش في جزيرة العرب من الشعر دليل على عدم وجوده.

ثم انتقل من إنكاره للشعر الجاهلي إلى التشكيك بحفظه إن وجد، لأسباب منها: استبعاد حفظه بالرواية؛ لأن حفظه يستوجب وجود جماعة من الرواة مهنتهم الحفظ، وهو ينكر ذلك،

وقال أيضًا مشككًا: بأن الإسلام يجب ما قبله، والقرآن ذم الشعراء، وهذا سبب قوي لنسيان الشعر إن كان ثمة شعر، وكذلك الأشعار الجاهلية كانت تتغنى بانتصارات قبلية تثير الشحناء، ولما كان الإسلام جاء لتوحيد العرب؛ فإنه يحث على نسيان هذا الشعر.

كما تناول بعض رواة الشعر الجاهلي من الضعفاء الذين يؤكدون نظريته بضعفهم ووهن رواياتهم، وأما أن يكون الشعر قد حفظ بالكتابة؛ فهذا باطل بزعمه لأن القرآن نفى أن يكون للجاهليين كتاب، والقول بكتابة الشعر الجاهلي يتناقض مع صدق القرآن.

وما قدمه مرجليوث من أدلة نظرية في هذه المقالة كان حافزًا لكتابات كثيرة توالت بعده، حيث نشر هذا المقال في تموز عام1925م في المجلة الملكية الآسيوية؛ وفي خلال عام 1926م نشر (طه حسين) كتابه المشهور (في الشعر الجاهلي) الذي انتحل فيه فكرة مرجليوث وادعاها وبوب لها أبوابًا وفصل فصولًا ودرس ذلك في الجامعة.

وقد قوبلت مقالة مرجليوث بمعارضة ونقد من المستشرقين أنفسهم قبل غيرهم، فهذا (آربري) يقول في خاتمة كتابه (المعلقات السبع) وقد ذكر أقوال مرجليوث وفندها: (إن السفسطة– وأخشى أن أقول: الغش– في بعض الأدلة التي ساقها الأستاذ (مرجليوث)، أمر بيّن جداً، ولا تليق البتة برجل كان، ولا ريب من أعظم أئمة العلم في عصره).

يتبين خطر موفق مرجليوث من الشعر الجاهلي من أوجه عدة، منها:

الأول: إنكار إعجاز القرآن الكريم وعظمته الذاتية في لفظه ومعناه، والقول بالصرفة: أي أن الله تعالى صرف العرب على الإتيان بمثله لا أنهم عجزوا.

الثاني: ادعى المنكرون للشعر الجاهلي أن المفسرين والمحدثين كانوا قد احتاجوا لنظم الشعر العربي ونحلته إلى شعراء الجاهلية؛ لإثبات صدق القرآن والسنة وعروبتهما، وكأن القرآن والسنة لا يكفيان دلالة وبرهانًا على صدق ما فيهما وإعجازه، وإنما تكتسب أهميتهما في انتحال الشعر الجاهلي ونظمه.

الثالث: ما احتوته من أدلة نظرية لا صحة لها بالجملة، ويكفينا –هنا– في بيان بطلانها أنها تعارض نصوص الشرع الدالة على وجود هذا الشعر الجاهلي وروايته واشتغال العرب فيه، وقد

أشار الله تعالى إلى وجودهم في قوله: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ(225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ} [الشعراء: 224 – 226]، كما ثبت عن أصحاب رسول الله أنهم كانوا ينشدون أشعار الجاهلية عنده ويتذاكرونها في بعض مجالسهم، فعن جابر بنسمرة، قال: جالست النبي أكثر من مائة مرة، فكان أصحابه يتناشدون الشعر، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت، فربما يتبسم معهم.

كما تعدّ **حسب الكاتب غسان عبد الخالق** دراسة تيودور نولدكه رائد المدرسة الألمانية في الاستشراق الموسومة بـ: "تاريخ ونقد الشعر العربي القديم" من أقدم الدراسات الاستشراقية، على صعيد تقييم ونقد مصادر الشعر الجاهلي وعلى صعيد دوره في الدولة الأموية، فضلاً عن تحليل علاقته بالتكوين السيكولوجي للإنسان العربي، ومع ضرورة التذكير بخصوصية أسلوب المستشرقين ومنهجيتهم في الكتابة؛ من حيث الميل إلى الوصف الصادم والتقرير الحاسم فضلاً عن الإكثار من الجمل المعترضة.

ينطلق تيودور نولدكه من فرضيّة مؤداها أنّ بحور الشعر العربي الجاهلي قد تمخّضت عن (بحر الرّجَز) حسب الأفكار التي استقاها من نقاد القرون المتأخرة الذين عدّوا الرّجَز (حمار الشعر) وأخرجوا ناظميه من دائرة الشعراء الفحول، فإنّ نولدكة قد راهن على بساطة هذا البحر وتداخله بالنثر اليومي، حتى صار دارجاً على ألسنة العوام وغير الموهوبين.

وأيّاً كان الأمر، فقد اتفق مع الجاحظ على صعيد تقدير عمر الشعر العربي في العصر الجاهلي بـ 150 – 200 سنة قبل البعثة النبوية من جهة، كما التقى مع معظم الباحثين القدامى والمحدثين الذين افترضوا أنّ معلقة امرئ القيس تمثل نموذجاً لتقليد شعري كان حديث التكوّن من جهة ثانية.

ولعلّ أخطر طروحات نولدكه في هذه الدراسة، يتمثل في تحديده نهاية الشعر العربي القديم (نمط القصيدة الجاهلية) مع الشاعر ذا الرّمة (ت 117 هـ) فهو الممثل الأخير للقصيدة البدوية التي واصل الأمويون رعايتها بحكم تأثرهم بالعصبية الجاهلية، فيما ذهب إلى أنّ السيادة الحقيقية للثقافة العربية الإسلامية في حقل الشعر تبدأ مع العباسيين (132 هـ)، بل إنّه أكد

بأنّ عمر بن أبي ربيعة هو الشاعر الأكثر جدارة بالاعتناء من بين كل شعراء صدر الإسلام (جرير... الفرزدق... الخ)، نظراً لأنه تفرّد بامتلاك الجرأة على التعبير عن نمط الشعر العربي الجديد وعن واقع المجتمع الأرستقراطي القرشي في العصر الأموي.

لقد حمّل نولدكه الأمويين مسؤولية (انحطاط) نمط القصيدة الجاهلية البدوية على حد تعبيره، جرّاء إصرارهم على نقل مركز ثقلها المتمثل في الصحراء الشاسعة والقبائل المقاتلة إلى قصور أُمرائهم وولاتهم، كما نفى نفياً قاطعاً أن يكون الإسلام قد تسبّب بهذا الانحسار الشعري المريع.

وفي السياق ذاته فقد حمّل رواة العصر الأموي (حمّاد الراوية وخلف الأحمر) مسؤولية اضطراب ديوان الشعر العربي في العصر الجاهلي، لتهالكهم على نيل العطايا فضلاً عن استهتارهم الشديد وافتقارهم للشعور بالمسؤولية، ونوّه في المقابل برواة العصر العباسي الذين أظهروا حرصاً حقيقياً على تدوين وتوثيق الشعر الجاهلي (المفضل الضّبي والأصمعي). وبوجه عام فهو لا يعفي مدرستي الكوفة والبصرة من مسؤولية الإسهام في اضطراب ديوان الشعر الجاهلي، بسبب التنافس الشديد بينهما.

ومع أنه لم يستبعد قيام الرواة بإخضاع القصائد الجاهلية التي انطوت على أبيات أو إشارات وثنية، لتعديلات تجعلها متوافقة مع روح الإسلام، إلا أنه نظر بعين الاعتبار الشديد لعدد من العوامل الأخرى التي أسهمت مجتمعة في اهتزاز مصداقية ديوان الشعر العربي في العصر الجاهلي، مثل: انتشار القبائل العربية في الأمصار واختلاطها بالعجم، وإقدام الرواة على تلفيق القصائد لبعض الشعراء والقبائل لأسباب مادية أو معنوية عرضها ابن سلام الجمحي، فضلاً عن تفاوت مهارات نسّاخي المخطوطات وتسرّب بعض الأساطير التوراتية إلى هذا الشعر المصنوع.

وحتى لا يبدو متحاملاً على مصادر الشعر الجاهلي، فإنّ نولدكه لم يدّخر وسعاً للتنويه بأنّ ما لحظه من اضطراب في هذا الشعر، يتكرّر بصورة أو بأخرى في مدوّنات كثير من الشعوب، كما لم يدخر وسعاً للتنويه بحقيقة اقتدار النقاد العرب القدامى على تبيّن الفروق

الدقيقة بين القصائد الجاهلية التي تبدو متشابهة له ولغيره من المستشرقين، ومن ثم التنويه باقتدارهم على تبيّن الفروق الدقيقة بين الشعراء، لما تمتع به هؤلاء النقاد القدامى من معرفة وخبرة معجمية فيلولوجية فائقة.

يختم نولدكه مراجعته هذه، بدحض وتفنيد ما يدعوه (خرافة المعلّقات) اعتماداً على المنهج النصي التاريخي فضلاً عن المنهج الحجاجي. ومن الملاحظ أنّ جُلّ الباحثين العرب المرموقين، قد أفادوا من هذه المصادرة النابهة إلى أبعد الحدود، كما تجنّب معظمهم التنويه بدوره الريادي على صعيد دحض أسطورة المعلّقات لسبب أو لآخر، فبدت مصادراتهم عليها كما لو أنها من إبداعهم.

وعلى كثرة المآخذ والتحفّظات التي أبداها بخصوص الشعر الجاهلي، إلا أنه أقرّ بالروح المنعشة التي تفوح منه وتدل على قوّته وجماله، كما أقرّ بأنه قدّم صورة حيّة للعرب الجاهليين بحسناتهم وسيئاتهم، ورغم اعتقاده أيضاً بحسيّة هذا الشعر وواقعيته الشديدة وافتقاره إلى الخيال المحلّق والتأمّل العميق، فقد أكّد في الوقت نفسه عظمة هذا الشعر بسبب روح الرجولة والقوة التي تسري فيه –خلافاً لروح العبودية والاستخذاء التي تهيمن على آداب كثير من الشعوب الآسيوية الأخرى– إلى درجة أنه طالب الشعب الألماني بأن يقتدي بهذا الشعر حتى يغسل عاره القديم.

نلاحظ ما بدا صادماً للباحثين العرب في دراسة نولدكه عن تاريخ ونقد الشعر العربي القديم قبل عقود، قد صار من البديهيات المتداولة التي أكّدتها المصادر العربية القديمة نفسها. وعليه تعد بعض هذه الانتقادات والمعارضات وجهة نظر يمكن البحث فيها وتقبلها ونسبها إلى أصحابها لأنهم تجشّموا عناء قرع كثير من الأجراس على امتداد القرنين السالفين؛ وما يدفعنا للحرس الشديد والتنبيه للباحثين العرب بعدم مبالغتهم في اتهام المستشرقين بالإقدام على تشويه ثقافة وحضارة وتاريخ المشرق العربي.